

صفحات من تاريخ تعریب التعليم الطبی *

بشير الكاتب (۱)

تستعرض هذه الورقة تاريخ استخدام اللغة العربية لغة عمل في تطوير العلوم الطبية والتعليم الطبی منذ ورثت الحضارة العربية الإسلامية تراث الحضارة اليونانية وحلت محلها في مسيرة الحضارات الإنسانية الرائدة .
وتناقش الورقة كذلك التطورات اللاحقة في تدريس العلوم الطبية باللغة العربية في العالم العربي حتى وقتنا الحاضر .

Review of the history of the teaching of medicine in Arabic

Bashir Al-Katib

This paper reviews the history of using Arabic as a working language in the development of medical sciences and education since the Arab-Islamic civilization took over the heritage of the Greek civilization and replaced it in the track of pioneer human civilizations. The paper also discusses the subsequent developments in teaching medical sciences in the Arab world up till now.

Pages de l'histoire de l'arabisation de l'enseignement de la médecine

Cet article fait un tour d'horizon de l'histoire de l'utilisation de l'arabe comme langue de travaille dans le développement des sciences médicales et de l'enseignement de la médecine depuis l'époque à laquelle la civilisation arabo-islamique a repris l'héritage de la civilisation grecque et qu'elle a pris sa place dans la lignée des grandes civilisations. On y traite également des nouvelles avancées dans l'enseignement de la médecine en arabe qui ont été réalisées dans le monde arabe jusqu'à nos jours.

*An English translation of this article will be published in a later issue.

(۱) استاذ الجراحة، كلية الطب ، جامعة حلب ، الجمهورية العربية السورية .

مدخل إلى الموضوع ولحة تاريخية

ولهم تعلموا اللغة العربية أو اتخذوها لغة رسمية للدولة العثمانية التي تعتبر امبراطوريتها امتداداً للأمبراطورية العربية العباسية والتي ألت إلى الأتراء بعد معركة مرج دابق مع قاتصوه الغوري في عام ١٥١٧م، ثم اندحار طومان باي المملوكي في مصر، وأخيراً بعد فتح الحجاز وانتقال الخلافة من الخليفة العباسى الأخير إلى السلطان سليم الأول (ياوز سليم).

صحيح أن العثمانيين جمعوا شتات الأمة الإسلامية، وأوصلوا الإسلام إلى أبواب فيينا، ولكنهم لم يتمكنوا من نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى اللغة الرسمية للدولة، أي اللغة التركية. وربما لم يكن لديهم متسع من الوقت لأنهماكهم بالحروب المتواصلة. ولم يظهروا اهتماماً سوى بالشعر والثرثرة كما يقول ستانفورد شو. وربما لو أنهم كانوا قد جعلوا لغة القرآن، اللغة العربية، اللغة الرسمية لأمبراطوريتهم، لكانوا قد تمكّنوا من تأسيس تواصل بين الحضارة العربية الإسلامية التي ورثها عن العرب والحضارة الجديدة التي كان يمكن لهم أن يؤسسوا مستفيدين من كنوز ومدخرات واكتشافات الحضارة العربية الإسلامية السابقة، وخاصة في مجال العلوم.

أما الأوروبيون، فإنهم وإن لم يتمكنوا من الاطلاع على الحضارة اليونانية القديمة العربية عن طريق الرومان ولغتهم اللاتينية، فإنهم استطاعوا من خلال مدارس صقلية والأندلس العربية، وبعد تعلمهم اللغة العربية، من نقل ما ورثه العرب عن اليونان بالترجمة، وما ابتكره العرب بالذات. فنقلوا ذلك كله إلى

حين نطالع تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، نرى أنها هي التي ورثت الحضارة اليونانية وأخذت مكانها بين الحضارات الرائدة في التاريخ الإنساني. أما بالنسبة للحضارة الرومانية التي تلت حقبة الحضارة اليونانية، والتي كانت يجب أن تعتبر وريثتها الطبيعية، فإنها لم تأخذ دورها الحضاري، ولم تكن أكثر من تواصل مفترض تال للحضارة اليونانية. والسبب أن الرومان لم يهتموا بترجمة التراث اليوناني إلى اللغة اللاتينية. أما اللغة اليونانية، فإنها تراجعت، وفقدت تأثيرها بعد ظهور الدولة الرومانية، وهكذا لم يبق في أوروبا من هو قادر على مطالعة الكتب اليونانية إلا قلة نادرة، كما يقول برتراند رسل.

أما العرب، فقد تطلعوا إلى الكتب اليونانية فوجدوا فيها الكثير من العلوم وال المعارف، وانصرفوا إلى ترجمتها، واقتسبوا منها ما كانوا بحاجة إلى معرفته، ثم بدأوا يضيفون إليها ما اتوصلوا إليه من معلومات والابتكارات. وقدموها ذلك كله إلى الحضارة الإنسانية، رغم أن حضارتهم كانت إسلامية دينًا وعربية لساناً. وحينما انتقلت القيادة الحضارية إلى أوروبا، أصبحت الحضارة الأوروبية حضارة مسيحية، ولاتينية اللغة في البداية، ثم محلية اللغة فيما بعد.

وربما يكتننا تشبيه دور الرومان بالنسبة للحضارة اليونانية بدور الأتراء بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية. فكما أن الرومان لم يهتموا بترجمة الحضارة اليونانية ونقلها إلى لغتهم، فإن الأتراء لم يتمكنوا من ترجمة الحضارة العربية الإسلامية إلى اللغة التركية،

وال العسكري. والصراع بين الفرنسيين والإنكليز على الشرق، وعدم تفاهتهم على اقسامه آخر تفتت الامبراطورية العثمانية ما يقارب مئة سنة. وعندما تكنت فرنسا وانكلترا من التوصل إلى صيغة مقبولة من الطرفين لاقتسام الامبراطورية العثمانية، بما فيها من البلدان العربية، وذلك وفق معاهدة سايكس- بيكو الشهيرة، ثم وفق مؤتمر القاهرة في عام ١٩٢٣، بدأ الاستعمار الغربي، بتشييد وتنفيذ خططه الاستعمارية في هذه المنطقة الهامة من العالم. ولذا فإن الصراع الذي كان قائماً بين فرنسا وبريطانيا، أخر هذه النتيجة التي وصلت إليها البلاد العربية من التقسيم، عقب الحرب العالمية الأولى ما يقارب القرن.

في خلال هذا القرن، نرى شخصاً فذاً، وهو هوبياً وهو محمد علي باشا، جاء غريباً إلى مصر من مدينة (كافالا) اليونانية، وهو يجهل لغة البلد، وتكون من تأسيس دولة قوية فتية حديثة ضمن الامبراطورية العثمانية. ولكنه بحكمته، لم يلجم إلّا اللغة التركية التي كان يتكلّمها، والتي هي اللغة الرسمية للامبراطورية التي تدين بالولاء لسلطانها خليفة المسلمين. بل اتجه إلى اللغة العربية، فجعلها اللغة الرسمية في الدولة وفي التعليم.

وأرسل محمد علي شباناً مصريين في بعثات دراسية إلى فرنسا. وعندما عاد هؤلاء العلماء الشبان من إيفاداتهم، ابتدأوا بالتدريس في المدارس العالية التي كان محمد علي قد افتتحها. وكان التعليم باللغة العربية، لا باللغة التي درس بها الموهدون، أي اللغة الفرنسية، ولا باللغة الرسمية للامبراطورية التي يعيشون ضمنها، وهي اللغة التركية، وإنما بلغة البلد الذي يعيشون فيه ويتمون إليه.

اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوروبا آنذاك، وإن كانت منحصرة برجال الكنيسة والنبلاء والمثقفين من الأغنياء.

ولكتنا نلاحظ أنه ابتدأ من عصر النهضة الأوروبيية، فقد بدأ هذا الاحتكار العلمي الطبقي بالانحسار، وخاصة حينما بدأ الكتاب بالكتابة بلغاتهم المحلية، وذلك انطلاقاً من ذاتي عندما كتب الكوميديا الإلهية باللغة الإيطالية ومروراً بيكافيللي الذي كتب كتابه الشهير "الأمير" باللغة الإيطالية أيضاً. وهكذا بدأت قيمة اللغات المحلية بالبروز في طريق إيصال المعارف إلى جميع طبقات الشعب. وكانت تلك الخطوة هي بداية انطلاق الثورة العلمية في عصر النهضة الحديثة في أوروبا.

فكأن النهضة الخضراء لشعب من الشعوب متلازمة بشر المعرفة بلغة هذا الشعب. وعندما تكون لغة العلم والمعرفة هي غير اللسنة التي يتكلّمها شعب ما، فإن ذلك يعني تخلف هذا الشعب. وعدم تقدمه الحضاري، أي تماماً كما حدث عند الرومان عندما لم ينقلوا الحضارة اليونانية إلى لغتهم، وكما حدث عند الأتراك العثمانيين عندما لم يتمكنوا من الاستفادة من الحضارة العربية الإسلامية فينقلوها إلى لغتهم أو يحاولوا أن يتعلّموا اللغة العربية، و يجعلوها اللغة الرسمية ولغة التعليم، فيكملوا بذلك مسيرة الحضارة العربية الإسلامية.

ولاشك في أن حملة نابوليون بونابرت على مصر، ومكوث الفرنسيين ولو مدة قصيرة في مصر يعتبر فاتحة عهد جديد بالنسبة لمصر. وانسحاب الفرنسيين من مصر كان بالدرجة الأولى يرجع إلى تغلب انكلترا السياسي

السلطان العثماني، الذي رأى سلطانه مهدداً بالزوال من قبل أحد ولاته، فاستجدة بالأوروبيين، الذين أنجدوه، وطبعاً لا حباً به، ولارغبة في المحافظة على الامبراطورية العثمانية، ولكن خوفاً من أن تخرج من الشرق العربي المسلم دولة عصرية تقف حائلاً أمام الأوروبيين في تحقيق غايتهم التي يسعون إليها وهي إزالة الامبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية. ولذا فإنهم بعد أن تأمروا ضد محمد علي استمروا في مخططهم... إلى أن جاء يوم وورثة محمد علي قد أغرقوا بالديون فسارع الإنكليز إلى احتلال مصر عام ١٨٨٢ حيث حولوها إلى محمية بريطانية، لا صلة لها بالسلطان العثماني سوى صلة روحية إسمية واهية. وحينما استتب لهم الأمر، كان من أوائل ما سعوا إليه، العمل على السيطرة على الطفرة العلمية الحديثة التي حققها محمد علي، فقاموا بتحويل التدريس في المعاهد العليا من اللغة العربية إلى الإنكليزية. وهكذا كانت بداية تدريس الطب باللغة الإنكليزية في الشقيقة العربية الكبرى مصر.

التعليم العالي في بلاد الشام

في بلاد الشام (سوريا ولبنان، وفلسطين)، كان الأمر مختلفاً عما كان عليه في مصر، فلم يظهر في بلاد الشام شخص يماثل محمد علي، وبالتالي نهضة علمية ماتلة لتلك التي ظهرت في مصر، إلى أن جاءت الإرسالية الإنجيلية الأمريكية، فأنشأت المدرسة الأمريكية في قرية (عيّة) في لبنان، وذلك في حوالي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبعدها انتقلت هذه المدرسة إلى بيروت، وصارت

وكان من جملة المعاهد العالمية التي افتتحت في عهد محمد علي، مدرسة أبي زعلب لتعليم الطب والصيدلة، التي أنشئت في عام ١٨٢٦/١٨٢٧ ثم نقلت إلى قصر (العيني) بالقاهرة في عام ١٨٣٧، وكان التعليم فيها يجري باللغة العربية، ولم يتحول التدريس فيها إلى اللغة الانكليزية إلا في عام ١٨٨٧، أي بعد دخول الإنكليز إلى مصر، وفرضهم الحماية عليها بعدة سنوات.

ولم يقتصر التعليم العالي باللغة العربية على الطب والصيدلة، بل شمل العلوم العسكرية، والمدنية أيضاً. هذه الخطوة التعليمية التي أقرت ونفذت في عهد محمد علي، إلا وهي التعليم بلغة أهل البلد... أعطت ثمارها بسرعة، فتعممت المعرفة على عدد كبير من أبناء البلد، وتحولت ولاية مصر بفضل هذه النهضة العلمية إلى ولاية تمثل في الواقع نواة دولة حديثة معاصرة، باتت تهدى كيان الامبراطورية العثمانية، التي تتمنى إليها، وهي لا تشكّل سوى جزء بسيط منها.

فالتفوق السياسي والعسكري هو دوماً داعج إلى التقدم العلمي والتكني، وما يبعدهما من ازدهار اقتصادي. والتقدم العلمي في بلد ما لن يكون إلا إذا عمت المعرفة الحديثة على أكبر عدد ممكن من سكان هذا البلد. وهذا، لا يمكن تحقيقه إلا إذا كانت هذه المعرفة بلغة أهل البلد.

وبحسبما لاحظت القوى الأجنبية التي كانت تسعى إلى تفتيت الامبراطورية العثمانية واقتسامها، ظهور نواة دولة شرقية حديثة قوية في إحدى ولايات الامبراطورية العجوز، سارعوا إلى التآمر عليها وقاموا بتلبية طلب

وكان من الأطباء الشهيرين في كلية الطب الأمريكية في بيروت آنذاك، الدكتور جورج بوست Post، الذي كان يدرس الجراحة والنبات والمواد الطبية، وله في العربية مؤلفات شهيرة في المواد التي كان يدرسها، ومنها "المصباح الواضح في صناعة الجراح"، والأقربادين، والمواد الطبية ومبادئ التشريح والبيجين (حفظ الصحة)، والفسيولوجيا (علم الغريرة)، وكتاب تحت عنوان "مبادئ علم النبات"، وكتاب "علم الحيوان" وهو في جزأين. أما الأستاذ الثالث في كلية طب بيروت الأمريكية، الذي درس باللغة العربية وكتب أيضاً كتاباً في التشريح، والفسيولوجيا، وعلم الصحة باللغة العربية، فهو الدكتور يوحنا وربات Wartabet.

ولكن التعليم الذي ابتدأ في الكلية الأمريكية في بيروت باللغة العربية، لم يدم طويلاً، وليس بين يدي تاریخ دقيق عن تحويل التدريس إلى اللغة الانكليزية. ولكنني أعتقد أنه حدث بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ودخول فرنسا وانكلترا إلى المنطقة.

وفي التاريخ القريب، يوجد عندنا مثال مشابه، وذلك حينما يضطر الأساتذة الأجانب إلى التدريس بلغة البلد الذي يأتون إليه، وذلك كما حدث في تركيا حينما جاءتها نخبة ممتازة من الأساتذة الألمان الذين هربوا من ألمانيا، والتوجهوا إلى تركيا في عام 1933، بعد أن استتب الحكم في ألمانيا للنازيين. هؤلاء الأساتذة اللاجئون سياسياً، يرجع إليهم الفضل الأكبر في تحديث جامعة استانبول أو كما كانت تسمى سابقاً (دار الفنون)، وتحويلها

تعرف باسم الكلية الأمريكية. في هذه الكلية ابتدئ بتدريس الطب في عام 1867 وقد اختارت الإرسالية الإنجيلية الأمريكية مركزاً آخر لها في وسط الامبراطورية العثمانية، فأأسست في مدينة عيتسب التركية حالياً، (وإن كانت حسب التقسيمات الإدارية العثمانية تابعة لولاية حلب)، مستشفى لازال موجوداً حتى الآن ولا زال يعرف بالمستشفى الأمريكي، رغم عدم وجود أية صلة له مع أمريكا، ومدرسة للطب لم تثبت أن توقفت عن التدريس بعد حوالي ثلاث سنوات من انتهاها.

أما الكلية الأمريكية في بيروت، فقد كتب لها البقاء، وكانت ولا زالت تعتبر أحد المشاعل الحضارية الهامة في الشرق الأوسط. وكما هو معلوم، فلا زالت الجامعة الأمريكية وكليتها الطبية تقوم بمهامها حتى يومنا هذا.

ومن الغريب أن الطب في الكلية الأمريكية، كان يدرس في البداية باللغة العربية. ولقد اضطر الأساتذة الأمريكيون الذين كانوا يدرسون في هذه الكلية، إلى تعلم اللغة العربية من أساتذة أعلام في اللغة العربية، كالمعلم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي... ولاشك أن أشهر هؤلاء الأساتذة الأمريكيين، كان الدكتور كرينيليوس فان دايك Van Dyke، الذي كان يدرس الكيمياء، ثم علم الأمراض، باللغة العربية. ولم يكتف الدكتور فان دايك بالتدريس فقط، بل إنه أصدر مؤلفات باللغة العربية، وأشهرها كتاب "الباتولوجيا" (علم الأمراض). وكتاب "النقش في الحجر"، وذلك في تسع مجلدات صغيرة، في مختلف العلوم، كالكيمياء والطبيعة والنبات.

الإنجليزية الأمريكية، فكان ذلك عاملاً محفزًا على تأسيسها لكلية الطب العثمانية في دمشق في عام ١٩٠١ . هذه الكلية باشرت التدريس في عام ١٩٠٣ ، واستمرت ما يقارب العشر سنوات، تقوم بمهامها في دمشق، وتدرس الطب باللغة التركية. وبقيت هذه الكلية في دمشق حتى عام ١٩١٣ ، حيث انتقلت بعدها إلى بيروت، وعرفت هناك باسم "الطبية العثمانية". وكانت الفحوصات لاتتم إلا بوجود أستاذة متدين من كلية طب استانبول. وبسبب ظروف الحرب العالمية الأولى، ووجود فرنسا في التحالف المضاد للتحالف الذي كانت الدولة العثمانية موجودة في ضمته، أغلقت كلية القديس يوسف في بيروت، واحتلت الطبية العثمانية مكانها، وبقيت كذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، في عام ١٩١٨ ، حينما خسرت الدولة العثمانية مع حلفائها الحرب، وانسحبت من سوريا ولبنان، فأغلقت الطبية العثمانية، وعادت رهبة القديس يوسف إلى افتتاح كليتها. أما طلاب الطبية العثمانية، فقد وجدوا أنفسهم وقد باتوا على أقصى كليّة كانوا متربيين إليها، وكانوا في صفو مختلف من الطب والصيدلة، وهم على الأغلب من أبناء المنطقة، أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

وكان جيش الثورة العربية بقيادة الشريف فيصل (الذي أصبح فيما بعد الملك فيصل الأول، ملك سوريا ثم العراق)، قد دخل دمشق مع جيوش الحلفاء بقيادة الجنرال النبي الانكليزي. وتأسست في دمشق أول حكومة عربية بعد أربعة قرون كانت فيها البلاد العربية ضمن السلطة العثمانية.

إلى جامعة حديثة معاصرة. وكانوا نخبة من العلماء الأفذاذ في اختصاصاتهم ك نيسن Nissen في الجراحة، وشوارتز Shwartz في التشريح المرضي، وفيترشتاين Winterstein في الفسيولوجيا، وفرانك Frank في الأمراض الداخلية، وماكس كلارا Max Clara في علم الجنين، وستاري Stary في الكيمياء الحيوية. هؤلاء الأستاذة، كانوا في البداية يحاضرون باللغة الألمانية، وتنقل محاضراتهم بترجمة فورية يقوم بها أحد الأستاذة المساعدين في القسم إلى اللغة التركية. ولكنهم بعد ذلك أجروا على تعلم اللغة التركية والمحاضرة بهذه اللغة. والذين بقوا منهم في تركيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. كانوا يحاضرون باللغة التركية. وأنا شخصياً كنت أحد الطلاب الذين أتاحت لهم الظروف فرصة الاستماع إلى محاضراتهم الرائعة، والدراسة في كجهم القية، باللغة التركية.

نشوء وتطور التعليم العالي الطبي في سوريا

أما بالنسبة إلى سوريا بالذات، فإن الدولة العثمانية، لاحظت حاجة بلاد الشام إلى معاهد عالية، يتبّع إليها الطلاب الذين أنهوا دراستهم الثانوية، وأخذت بعين الاعتبار ما يعنيه طلاب بلاد الشام والعراق من المتاعب وال所需要的 في سبيل إكمال دراساتهم العليا في الأستانة. فارتات أن تفتح معهداً طبياً عالياً في دمشق إضافة إلى المعاهد العسكرية العليا التي أسستها في دمشق. وربما أحسست الدولة بمدى الدور الذي يمكن أن تلعبه الإرساليات التبشيرية، كرهبة القديس يوسف، والإرسالية

شوك الشطي (في الطب)، وفي (الصيدلة) والذي الدكتور أحمد صفا الكاتب، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جنانه.

أما الأساتذة، فكانوا جميعاً من الأطباء والصيادلة الذين درسوا باللغة التركية، وتخرجوا من المدارس العثمانية، وربما كانوا يستهلون إلقاء المحاضرات باللغة التركية، ولو كان ذلك لفترة انتقالية على الأقل... ولكنهم جميعاً التزموا بالتدريس باللغة العربية... ولم يكن هذا الأمر سهلاً... واتصور أن قضية المصطلحات العلمية كانت من أصعب الأمور التي واجهتهم. ولو أن العثمانيين حينما وضعوا مصطلحاتهم العلمية، فإنهم كانوا يستعينون بالكلمات العربية، ويضعونها في قالب تركي... الواقع أنه كان يوجد في جامعة استانبول بعض الأساتذة العرب الذين كانوا عندما يريدون ترجمة مصطلح ما مأخوذ من لغة أجنبية (فرنسية، ملانية، إنكليزية، لاتينية) فإنهم كانوا على الأغلب، لا يجدون لهذا المصطلح مقابلًا في اللغة التركية، فيلجأون إلى اللغة العربية، وخاصة أن اللغة التركية كانت وبقيت تكتب بالحروف العربية حتى عام ١٩٢٨، بينما حول مصطفى كمال أتاتورك، كتابتها إلى الأحرف اللاتينية.

كما أن اللغة التركية في أيام العثمانيين كانت مليئة بالكلمات العربية والفارسية. وهكذا فإن صياغة المصطلحات العلمية بما يناسبها من كلمات عربية، كان لا يبدو نزاراً، ويلقى قبولاً من الأذن التركية. وكان من مشاهير الأساتذة العرب في جامعة استانبول الدكتور نعوم الرامي، أستاذ التشريح، وهو من بلدة فالوغما في لبنان، والدكتور باسيل نعوم

ورغم الظروف السياسية والاقتصادية السيئة، وعدم الاستقرار الذي كان مسيطرًا على الأجزاء، ورغم أن المستقبل الذي يتضرر هذه الدولة الجديدة كان مجهولاً بالنسبة للعرب، فقد تداعى فريق من مفكري البلد، وبالاستعانة ببعض المدرسين الذين كانوا يحاضرون في المعهد الطبي العثماني، وبعض الأطباء والصيادلة المدنيين والعسكريين، إلى فكرة وجوب إعادة بعث الطبية العثمانية باسم "المعهد الطبي العربي"، للطب والصيدلة... إضافة إلى معهد الحقوق.

وهكذا ظهرت إلى حيز الوجود snoe الأولى للجامعة السورية في مدينة دمشق، ولدت هذه الجامعة الفتية الناشطة، شمل هؤلاء الشبان الحائزين المشتبين، من طلاب الطبية العثمانية، وتقرر حينذاك أن تكون لغة التدريس في الجامعة السورية، اللغة العربية، وكان ذلك في العام الدراسي ١٩١٩/١٩٢٠. ولا غرو في ذلك، حيث كانت العواطف جياشة متقدة، والحماس مشتد، لفكرة الدولة العربية الموحدة التي تشمل بلاد الحجاز، وشجد والعراق وبلاد الشام بأكملها. ولذا، فلا عجب أبداً أن يكون هناك حماس أيضاً لفكرة إحياء اللغة العربية، وإزالة كل أثر تركي من هذه الدولة العربية الفتية الجديدة. وأن تكون بالتالي لغة التعليم هي اللغة العربية.

وهكذا، وفي جو مشبع بالروح الوطنية القومية، ابتدأ التدريس في المعهد الطبي العربي (الطب والصيدلة)، وفي معهد الحقوق، باللغة العربية، وكان من بين الطلاب الأوائل الذين التحقوا بالمعهد الطبي العربي لإكمال دراستهم، الدكتور حسني سبع، والدكتور

الأتراك، ودخول الجيش العربي، حاملاً معه الرأية العربية وبمثابة دولة عربية موحدة مستقلة. والوضع السياسي لسوريا، وإن لم يكن واضحاً تماماً بعد، فإن الحكومة التي قامت آنذاك، كانت حكومة عربية برئاسة الأمير فيصل. ولقد جعل فيصل من دمشق مركزاً للحكومة التي أنشأها. ومن دمشق ذهب إلى مؤتمر الصلح في فرساي، مثلاً لوالله الشريف حسين بن علي، ومطالباً حلفاء الأمس، بل وملحاً عليهم بتحقيق ما وعدوا به من تأسيس الدولة العربية الموحدة.... وكانت الأوضاع في سوريا لا تبشر بالخير، ولا تبعث على التفاؤل. ولكن رغم عدم استقرار الوضع الداخلي واستمرار البلبلة السياسية في سوريا، فإن الحكم فيها كان قائماً على اكتاف أبناء البلد، والحكومات التي تعاقبت خلال ستين، كانت كلها حكومات محلية... واستثنى هذا الوضع حتى انسداد المؤتمر السوري وإعلان استقلال سوريا والمناداة بالأمير فيصل ملكاً على سوريا، وذلك في آذار ١٩٢٠ . وفرنسا لم تدخل سوريا كدولة متعددة إلا بعد معركة مسلalon في تموز ١٩٢٠ ، وأنهيار الحكم العربي الذي كان أول حكم عربي نباني ديمقراطي بعد أربعة عصور من التبعية العثمانية.

وهكذا عندما دخلت فرنسا إلى سوريا كان المعهد الطبي العربي قائماً، وكذلك معهد الحقوق، أي أنه كان في سوريا معهدان عاليان قائمان بالفعل ويدرسان بلغة البلد، ومن قبل أساتذة رواد أوائل كانوا مؤمنين بفكرة التدريس بالعربية ومحتمسين لها، ومحتملين لكل صعابها. وقد حاولت فرنسا في أكثر من مرة

شاشاتي وكان أستاذًا للكيمياء الحيوية وهو من مدينة حلب ومن عائلة قدية معروفة. وكمثال على ما ذكرت، فعوضاً أن يقال العضلة الصدرية الأمامية، كانوا يقولونها: عضلة-صدرية-أمامية. وعوضاً أن يقال مولد حموضة، وكانت الصدأ تلفظ (ظ) أي (مولد حموضة). وهكذا، فإنه كان من الممكن لأساتذة المعهد الطبي العربي الاستفادة من الكثير والكثير من المصطلحات العلمية العثمانية المستعملة آنذاك، ولرجاعها إلى قالبها وأصلها العربي الصحيح. ولم يكتف أساتذة المعهد الطبي العربي القديمي بهذا القدر، بل اتجهوا نحو الكتب الطبية التي كتبت باللغة العربية أو ترجمت إليها والصادرة في مصر أو عن الكلية الأمريكية في بيروت، فاستقروا منها الكثير، وعندما لم يجدوا مصطلحاً مناسباً متداولاً بالمرية أو لم يعجبهم ما هو دارج، فإنهم رجعوا إلى التراث العربي، وبحثوا في الكتب القديمة، ثم بدأوا بمشاورة بعضهم معتمدين على اجتهاداتهم اللغوية ومعرفتهم الطبية، وألقو كتاباً بالعربية ولم يحملوا وضع جدول للمصطلحات الطبية في نهايتها وما يقابلها باللغات الأجنبية.

وقد يتساءل الكثيرون لماذا لم يدرس الطب بالفرنسية في سوريا. كما حدث في العراق حين أنشئت كلية طب بغداد عام ١٩٢٧ ، حيث كان التدريس في جميع سنواتها باللغة الإنكليزية؟

الواقع أن الأمر في سوريا كان مختلفاً... فالمعهد الطبي العربي الذي افتتح في دمشق في عام ١٩١٨ ، كان مباشرة عقب انسحاب

الأمراض الداخلية، وأضاف إلى كل مجلد رسالة في المصطلحات الفرنسية والإإنكليزية المقابلة للمصطلحات العربية الواردة في مجلداته، والدكتور صلاح الدين الكواكي الذي كان أستاذًا في كلية الصيدلة، والذي كان له فضل تعریب العديد من المصطلحات الصيدلانية والکیمیائیة.

وفي عام ١٩٥٥، تألفت لجنة من الأساتذة الدكتور خاطر، والدكتور الخياط، والدكتور الكواكي، حيث قاموا بتسفيه من (كليرفیل) صاحب المعجم الطبي المتعدد اللغات، بطبع نسخة منه باللغتين الفرنسية والعربية. وهكذا صدر عن هذه اللجنة معجم للتعابير الطبية، طبع في مطبعة الجامعة السورية في عام ١٩٥٦، ويقع في ٩٦٠ صفحة، ويضم ١٤٥ مصطلحًا.

والحقيقة أنه منذ عام ١٩٠٠ صدرت معاجم متعددة، كـ ان آخرها "المعجم الطبي الموحد"، الذي صدر عن اتحاد الأطباء العرب، وكانت طبعته الأولى في عام ١٩٧٣، وطبعته الأخيرة المقحة والمطبوعة في سويسرا عام ١٩٨٣. هذا المعجم، يشتمل على المصطلحات العربية، وما يقابلها بالفرنسية والإإنكليزية، وربما كان هذا المعجم هو أوسع ما صدر من المعاجم وأكثرها إتقانًا. ولا يمكننا طبعاً الادعاء بأنه وصل إلى الكمال، فلا زالت تدور حول بعض تعابيره العربية بعض المناقشات، ولا زالت هناك أنكارات جادة لتطویره نحو الأفضل والأکمل من قبل المهيمنين بقضية تعریب التعليم الطبي. ولكنه ولا شك أصبح حالياً معجماً موحداً معتمدًا، يمكن لكل من يريد أن يكتب بحثاً علمياً أو كتاباً طبياً باللغة

تحويل لغة التدرس في المعهد الطبي العربي إلى اللغة الفرنسية، ولكنها قبليت بمقاومة من قبل المسؤولين في الجامعة، وحتى من قبل الحكومات التي كانت قائمة في ظل الانتداب الفرنسي، والتي لم تشجع أيضًا هذا التحويل، بل إنها دعمت استمرار التدرس باللغة العربية.

وأنا أتصور كم كانت المهمة التدريسية شاقة بالنسبة لهؤلاء الأساتذة الأوائل، الذين كانت دراستهم كلها باللغة التركية، وكم كانت الدراسة صعبة أيضًا بالنسبة للطلاب بدون كتب مقررة!... وأغلب تخميني أن الأساتذة كانوا يعتمدون أسلوب الأمالي، كما أن الطلاب كانوا يلجؤون إلى تدوين ما يقوله الأساتذة خلال المحاضرات النظرية والجلسات العملية... ولكن، ما هي الأبعض سنوات، حتى أصبح لكل أستاذ كتاب في المادة التي يدرّسها...

وأعتقد أنه من دواعي الوفاء والعرفان بالجميل أن ننتهز مثل هذه الفرصة للاشادة بجهود بعض الأساتذة الأوائل في المعهد الطبي العربي الذين كانت لهم إسهامات كبيرة وجهود لا تنسى في ميدان تعریب التعليم الطبي في سوريا. ومن أشهر هؤلاء الأساتذة - رحمهم الله جميعاً - الدكتور مرشد خاطر الذي ألف كتاباً في الجراحة، يشتمل على ستة مجلدات، ثم اختصره بمجلدين، والدكتور أحمد حمدي الخياط الذي ألف كتابه في علم الجرائم، والدكتور محمد جميل الحانوي الذي ألف كتاباً في علم الطبيعة، والدكتور حسني سبع الذي بقي لفترة طويلة رئيساً لمجمع اللغة العربية وألف كتاباً يقع في سبعة مجلدات في

أما النقطة الثانية : فهي أن الطلاب السوريين ، كانوا بشكل عام يجيدون اللغة الفرنسية ، وحتى أولئك الذين أتوا دراستهم ما قبل الجامعية في المدارس الحكومية . أما أولئك الذين كانوا من خريجي المدارس الفرنسية ، كمدرسة الأخوة المرимية ، والأرض المقدسة ، ومدرسة الالايك للذكور ، ومدرستي الراهبات الفرنسيسكيات ، والقديس يوسف للإناث ، فكانت لغتهم الفرنسية في غاية الكمال . وكان هذا عاملاً مساعداً ومهماً لطلاب كلية الجامعة السورية للرجوع إلى المصادر الأجنبية أو الذهاب إلى بلاد ناطقة باللغة الفرنسية لإجراء التخصص الذي يرغبون فيه .

أما بالنسبة لطلاب المدارس العربية المجاورة الذين كانوا يدرسون في دمشق ، فأكثرهم كانوا من العراق والأردن وفلسطين . وكانتوا يجيدون اللغة الإنكليزية ، حيث كانت بلادهم تحت الانتداب البريطاني ، وكان بإمكانهم أيضاً أن يتموا دراستهم التخصصية في بلاد ناطقة باللغة الإنكليزية بكل سر .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن تم جلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا ، أعيد بناء التنظيم الهيكلي للجامعة السورية ، فأنشئت كليات جديدة ، كما جرى تحديث للكليات القديمة ، ومن بينها كلية الطب ، وطب الأسنان والصيدلة ، ولكن التدريس بقى في جميع الكليات بجامعة دمشق باللغة العربية .

العربية ، أن يرجع إليه ، بل وأكثر من ذلك أن يتقييد به .

وهكذا تعتبر تجربة جامعة دمشق في مجال التعليم الطبي باللغة العربية تجربة رائدة ، ولاشك أن جامعة دمشق حملت لسنوات طويلة ، عبء التعليم العالي ، لا لأبناء سوريا فقط ، وإنما للعديد من أبناء البلد العربي المجاورة ، كالاردن ، والعراق ، ولبنان ، وفلسطين ، قبل وبعد عام ١٩٤٨ .

ولا شك أن جامعة دمشق خرجت أجيالاً من الأطباء والصيادلة وأطباء الأسنان على مستوى علمي يعتبر جيداً ، بالنسبة إلى أزمة تخرجهم . وهم جميعاً أتوا دراستهم باللغة العربية ، وكانتوا على الأغلب من الناجحين في مزاولتهم لهم الطبية . ولم تقف اللغة العربية سداً أمام من كان يرغب منهم في متابعة دراسته في بلد أوروبي أو أمريكي . وربما لاقى بعضهم قليلاً من الصعوبات في بداية فترة تخصصهم في البلدان الأجنبية ، ولكن هذه الصعوبات أمكن تذليلها بقليل من الجهد والمثابرة . إلا أنه يجب الإشارة في هذا المجال إلى نقطتين هامتين :

الأولى : أن عدد الطلاب المحدود ، كان يسمح بفرص جيدة في التدريب العلمي والاحتياط بالأساتذة والاستفادة من خبراتهم ، وخاصة أولئك الطلاب المتفوقون الذين كانوا بعد السنة الخامسة يسقون لمدة ستين كأطباء داخلين في مستشفى الجامعة .